الآخر والمكان الإيديولوجي في الرواية الخليجية
دراسة في نماذج منتقاة

الباحثة
عروبة جبار أصواب اللّه

الاستاذ المساعد الدكتور
ناجح سالم موسى المهنا

جامعة البصرة/كلية الآداب

الملخص:-

يتجسّد المبحث في رصد تمثّلات الآخر* في الرواية الخليجية من رصد وجود الآخر في إطار المكان العام أو الجغرافي للذات، ليتشكل دال المكان الإيديولوجي، من التباين المكاني بين المرجعين على وفق الرؤية والعلاقة بين الآخر والذات. فالمرجع المكاني للآخر، هو من يُجسد دال المكان الإيديولوجي، لما يحمله هذا المرجع المكاني من حمولات ثقافية واجتماعية في منظور لذات؛ لتُشكل الآخر مختلفاً غير مُماثل للذات، أما بوصفه آخر فكرياً أو انتمائياً أو دينياً أو مذهبياً أو سياسياً أو آخر اجتماعياً ثقافياً، مُغايراً مقصياً هامشياً مرفوضاً مطروداً. بمعنى آخر، أنّ هوية الآخر المرجعية، هي من تُشكل منظور وعلاقة الذات معه. وقد رصدنا دال المكان الإيديولوجي في نماذجنا على وفق مفهوم التقاطب الشعري لمفهوم المكان السردي. فقد أمدنا هذا المفهوم بمعرفة أفضل بالمجال الجغرافي والهندسي للمكان أو بمحور الاتصالات والقيم الاجتماعية والإيديولوجية بين الآخر والذات.

The Other and Ideological Space in Selected Novels from the Arab Gulf

Research. Uroubh Jabbar Soub Allah
Asst.Prof. Najih Salim Mousa Almihanna (Ph.D)
University of Basrah / College of Arts

Abstract:

The paper addresses the representation of the other in the novel in the Arab Gulf in the public and geographical space of the Self. The ideological space emerges from the referential differentiation between the Self and the Other. The spatial reference of the Other is what shapes the ideological space due to its cultural connotations that differentiate it from the Self. That Other might be ideological, religious, historical, or cultural, and it might be marginal or dissidemt. In other words, the identity of the Other determines the Self's relation to it. We have identified the Other from the perspective of poetic discourse. This concept has provided us with tools to analyse the geographical space and its socil and ideological determinants of the relation between the Self and the Other.

المقدمة:-

تتجسّد أهمية دراسة المكان* بوصفه مكوناً بنيوياً في النص الروائي مثّله مثّل بقية مكونات النص السردي، وقد تحدث(رولان بارت) عن أهميته في البنية السردية، فقال:((المكان يصبح مُحدّداً أساسياً للمادة الحكائية ولتلاحق الأحداث والحوافز،أيّ أنَّه يتحول في النهاية إلى مكون روائي جوهري، يُحدِث قطيعة مع مفهومه كديكور بتحوله هذا ليصبح نصاً متحكماً في الوظيفة الحكائية والرمزية للسرد وذلك بفضل بنيته والعلائق المترتبة عنها)).[١] وبوصف النص الروائي يتكون من عدّة بنيات سردية، فالمكان يُمثّل أحدى هذه البنيات، إلاّ أنّ((أهميته لا تقتصر على المستوى البنائي، بل تتجلى أيضاّ على مستوى الحكاية(المدلول)، وذلك حين يخضع الإنسان للعلاقات الإنسانية، النظم لإحداثيات المكان معتمداً على اللغة)) [٢] .

ومن هذا يمكن أنْ نتحدث عن المكان السردي، بوصفه مكوناً سردياً مثّل المكونات الأخرى في البنية السردية، فدال المكان الذي درسهُ الشعريون لا يتميز فقط بأنَّه المكان الذي تجري فيه المغامرة المحكية ولكنَّه أحد العناصر الفاعلة في تلك المغامرة نفسها أيضاً[٣]. وعلى هذا النحو يصبح المكان ضرورياً بالنسبة للسرد ولا يوجد إلاّ من خلال اللغة، ليبرز من هذا، ما يسمّى بالفضاء الروائي، الذي يعني في مفهومه النقدي مجموعة الأمكنة في النص الروائي، و((المكان بهذا المعنى هو مُكونُ الفضاء. وما دامت الأمكنة في الروايات غالباً ما تكون متعددة، ومتفاوتة، فإنّ فضاء الرواية هو الذي يَلُفها جميعاً إنّه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية، فالمقهى والمنزل، أو الشارع، أو الساحة، كلّ واحدٍ منها يُعتبر مكاناً محدداً، ولكن إذا كانت الرواية تشمل هذه الأشياء، فإنها جميعا تشكل فضاء الرواية))[٤]. فالمكان في الرواية يتجسّد بالأمكنة الجغرافية، الذي((يتولد عن الطريق الحكي ذته، إنّه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال، أو يُفترض أنهم يتحركون فيه)) [٥].

أيْ أنّ المكان السردي مجموعة الأمكنة الجغرافية، التي هي جزءٌ من فضاء الرواية، لـ((

نستنتج من هذا كله أنّ تَكوُّنَ الفضاء الروائي ليس مشروطاً على الدوام بوجود مقاطع وصفية مستقلة مُسهبة للأمكنة في الرواية، إنْ الفضاء يتأسس دائماً حتى من خلال الإشارات المقتضبة للمكان، والتي غالباً ما تأتي غير منفصلة عن السرد ذاته. ولعل هذه المسألة تُؤكد لنا أهمية التمييز النسبي الذي حاولنا أن نقيمه بين المكان والفضاء))[٦].

ولابدّ من الإشارة بأنّ مصطلح الفضاء أشمل من مصطلح المكان، لأنّ الفضاء هو((مجموعة الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيروة الحكي سواء تلك التي تمّ تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تُدرَك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية))[٧].

وقد اختلفت الإجراءات والأدوات النقدية في معالجته باختلاف الدارسين له، فمنهم من عدَّهُ إطاراً يؤطر أحداث الراوية فقط[٨]. لهذا تمثّلت أهم الجهود النقدية في معالجة دلالة المكان بوصفه مكوناً بنيوياً من التفريق بين مصطلح المكان ومصطلح الفضاء، إذْ من خلال شيوع مصطلح المكان لدى بعض النقاد والدارسين*، جعلت دلالته ووظيفته تتكتف، ليس من إجراء دراسته بُوصفه إطاراً للأحداث وديكوراً لها وتشخيِّصه من وظيفة الوصف التزينية فقط، بل من مصطلحه المتعدد وغير المستقر[٩]. فـ((الفضاء لا يُرى بالعينين وحسب. وإنما هو وسط محمل بالقيم التي لا شأن لها بذكر الأشكال والألوان)).[١٠] من هذا تجلت جهود الدارسين في تشخيص المكان بوصفه دالاً بنيوياً، له وظيفته من مصطلح الفضاء، فـ((الفضاء لا بوصفه أمكنة تدور فيها الأحداث والوقائع الحكائية أو تتمركز حولها الفاعلية الشعرية، بل الفضاء كوعي عميق بالكتابة جمالياً وتكوينياً، الفضاء كشكل ومعنى، الفضاء كذاكرة وهوية ووجود، الفضاء كسؤال إشكالي ملتصق بوعينا الثقافي والاجتماعي والجمالي ونسيجنا السيكولوجي والمعرفي والإيديولوجي)).[١١] ومصطلح الفضاء هنا لا يُغاير مصطلح المكان بل((هو مُعادل لمفهوم المكان في الرواية. ولا يُقصد به بالطبع المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كتبت به الرواية، ولكن ذلك المكان الذي تُصوره قِصَّتَها المتخيلة)) [١٢].

فالمكان جزءٌ من مكون الفضاء بكل معانيه الدلالية والسردية والبنيوية*، إلا أنّ مصطلح الفضاء أعم من مصطلح المكان، ليس لأنَّه يشمل أمكنة الرواية جميعها، بل لأنَّ((مفهوم المكان ينحصر في المكان المفرد داخل النص الأدبي، بينما يدلّ الفضاء على مجموع الأمكنة التي تدخل في شبكة من العلاقات فيما بينها داخل النص، كما يشمل أيضاً الإيقاع المنظم للحوادث ووجهات نظر الشخصيات بحيث يبدو مصطلح الفضاء أكثر شمولاً واتساعاً من مصطلح المكان، ليغدو هذا الأخير جزءً من الفضاء وليس مساوياً له))[١٣]. ورغم ذلك لم يحظَ مصطلح الفضاء بالشيوع إذْ ظل من الصعب الفصل بين المكان والفضاء، وقد استخدم بعض الدارسين مصطلح المكان بدلالته هذه بوصفه فضاء أو أنّهُ جزء منه[١٤].

والمكان سواء أكان وفق هذا المصطلح أم كان وفقاً لمصطلح الفضاء، فهو بنية مهمة في النص الروائي من خلال دوره الرئيس فيه، المُتشكل من علاقته مع المكونات الأخرى، إذْ تجري فيه الأحداث، وتتحرك الشخصيات وتؤدي أدوارها، ويُشارك في خلق المعنى والدلالة أيضاً[١٥]. فهو لا يتشكل بوصفه بنية سردية دلالية إلاّ من تفاعله وعلاقته المؤثرة بمكونات السرد الأخرى، وهو لا يتشكل إلاّ باختراق الشخصيات له، ونمو الأحداث من خلاله، هو ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النص السردي. وليس هناك، بالنتيجة أيُّ مكان محدد مسبقاً وإنَّما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث التي تقوم بها الشخصيات[١٦]، إلاّ أنّ المكان الروائي يختلف((عن بقية المكونات السردية الأخرى بصفات الثبات والسكون والجمود، لكنَّه رغم ذلك يعطي الحيوية للنص الروائي من خلال إقامة علاقات مع العناصر الأخرى،لأنَّ تعالقه يخرجهُ من القوقعة والسكونية إلى مكونٍ مفعمٍ بالدلالات))[١٧].

وسندرس المكان السردي، بوصفه جزءاً من دلالة مفهوم الفضاء السردي في النماذج المنتقاة، على وفق مفاهيم الشعرية البنيوية للمكان، ومن أهم هذه المفاهيم: التقاطب الضدي أو التراتبية المكانية، أو الطبقية، والرؤية. وهذه المفاهيم هي أحد الجهود النقدية التي تُوصل إليها الدارسون البنيويون في معالجة المكان من مفهوم مصطلح الفضاء[١٨]. فمفهوم التراتبية أو التقاطبية، هي ثنائية الفئات الاجتماعية أو الطبقية، إذ((يرى

لوتمان أنَّ النماذج الاجتماعية و الدينية والسياسية والأخلاقية في عمومها تتضمن صفات مكانية، تارة في شكل تقابل السماء/ الأرض. وتارة في شكل نوع من التراتبية السياسية والاجتماعية، حين تعارض بوضوح بين الطبقات(العليا) والطبقات(الدنيا). وتارة أخرى في صورة صفة أخلاقية حين تقابل بين اليسار واليمين أو بين المهن(الدونية) والراقية، وكلّ هذه الصفات والأشكال تنتظم في نماذج للعالم تطبعها صفات مكانية بارزة وتقدم لنا نموذجاً إيديولوجياً متكاملاً يكون خاصاً بنمط ثقافي معطى))[١٩]. ليُمثّل مفهوم التقاطب((المفهوم المناسب للاشتغال على الفضاء الروائي(...) وسواء نظرنا إليه كنموذج دراسي أو كمقترح منهجي للإجراء والتشريح، فإنَّ استلهام مبدأ التقاطب ومحاولة استخصابه ستكون له فائدة كبيرة في الوقوف بنا على المبادئ البنيوية التي تنظم اقتصاد المكان وفتح مجال البحث على الحقول الدلالية التي يتحرك الفضاء الروائي في نطاقها))[٢٠]. أمّا مفهوم الرؤية فيتشكل من الرؤية الموضوعية أو الذاتية التي تحملها الشخصية عن المكان الذي تخترقه ومن هذا الاختراق ندرك أبعاده وصفاته، وهذه الرؤية ستكون متداخلة مع المفهومين وليست منفصلة عنهما.

ويتمثل هذا التشخيص الثنائي الشعري للأمكنة من الوصف من العلاقة المتلازمة بينهما، لكن من وظيفة الوصف التفسيرية المتمثلة بالوصف الموضوعي والوصف النفسي للمكان. فالوصف الموضوعي يتمثّل من استقصاء عناصر المكان ومكوناته المتعددة التي تمكننا من التعرف على الطبقة الثقافية أو الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصيات الروائية. أمّا الوصف النفسي فيتمثّل حين تصبح الأماكن حاملة لقيم شعورية مؤثرة، ومن خلالها تعكس عمق الشخصية وأبعادها النفسية وسلوكها ومواقفها الخارجية[٢١].

وسواء أكان الوصف يخص هندسة المكان الشكلية أو وصف الشخصية من اختراقها للمكان، أو جاء في مشهد وصفي أم جاء مجرد إطار للأحداث، فإنّ مهمته الأساسية، التنظيم الدرامي للأحداث[٢٢]. إذْ وظيفته تتشكّل بوصفه عنصراً من العناصر المكونة للحدث الروائي إذ((أنَّ تقديم الأمكنة في الرواية يأتي مرتبطاً بتقديم الشخصيات، فإنَّ هذه الأخيرة لا تخضع كلياً للمكان بل العكس هو الذي سيحصل إذ أنّ الأماكن في هذه الحالة هي التي سيوكل إليها مساعدتنا على فهم الشخصية))[٢٣].

ومن رؤية إنّ((هناك من يعتقد أن الفضاء الجغرافي في الرواية يمكن أن يُدرس في استقلال كامل عن المضمون(...) غير أنّ "جوليا كريستيفا" لما تَحَدثتْ عن الفضاء الجغرافي لم تجعله -أبداً- منفصلاً عن دلالته الحضارية، فهو إذ يَتَشكَّلُ من خلال العالم القصصي يَحْمِل معه جميع الدلالات الملازمة له))[٢٤]. لابد من هذا الإشارة الى أنَّ علاقة الآخر بالمكان، لا تتشكل خارج إطار علاقته بالذات، لأن هذه العلاقة ستتشكل وفق إطار مكان الذات، ليتشكل دال المكان من اختراق الآخر، من طرح((ثلاثة أسئلة كبرى: أين يجري الحدث؟ وكيف يتم تشخيصه؟ ولماذا يتم اختياره على نحو من الأنحاء بالذات؟))[٢٥]. ومن هذا يتحدد المكان، في النماذج من المكان المرجعي، وهي الأمكنة التي تُحيل إلى واقع خارجي ويمكن تشخصيها باسم محدد. والمكان الهندسي، الذي يتشكل من وصف الشكل الخارجي للمكان.

يتشكّل المكان الإيديولوجي في مبحثنا بمحورين: أولاً، المكان العربي، الذي يتشكّل في: مصر والكويت، وتتجسّد نماذجه في: رواية(شقة الحرية) للكاتب السعودي غازي القصيبي. ورواية(في حضرة العنقاء والخل الوفي) للكاتب الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل. المحور الثاني، المكان الغربي، يتشكل في: أمريكا ونيوزيلندة، في نماذجه: رواية (الحياة كما هي) للكاتبة الإماراتية ظبية خميس، ورواية(أوراق طالب سعودي) للكاتب السعودي محمد عبد العزيز الداود.

المكان الإيديولوجي: مرجع الهوية

يتشكّل المكان الإيديولوجي –هنا- وسيلة ودالاً لتحريك وتحفيز الحمولات الثقافية و الاجتماعية والفكرية التي يتأطر بها، في تقيّم وتشخيِّص العلاقة والرؤية بين الذات والآخر، وتتجسّد دلالة هذا التشكّل من مرجع الآخر المكاني، بوصفه مرجعاً إيديولوجياً سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً دينياً، من رؤية الذات. وقطعاً هذه الدلالة لا تتشكّل إلاّ في إطار المكان العام للذات، فمن هذا الإطار يتشكّل التقاطب المكاني الدلالي الثنائي، بوصف دال الهوية عائقاً إشكالياً في تشكّل علاقة التواصل والانسجام بين الآخر والذات. ومن دال الهوية يُمثّل المكان إطاراً لاحتواء أو تمثّل الآخر. ليتشكّل هذا المبحث بمحوريه في إطار المكان المرجعي .

أولاً:المكان العربي: انشطار الهوية الثقافية وتعدّدها

تُجسّد أحداث رواية(شقة الحرية) بوجود الآخر في إطار المكان العربي المصري، ويتمثّل هذا الآخر، بمجموعة من طلبة الخليج العربي(بحرينيين، سعوديين)، يأتون الى القاهرة لغرض الدراسة في الجامعة، إلاّ أنّهم يتوجهون لأغراض وغايات شتى، ومن هذه الغايات التوجه الإيديولوجي للطلبة الخليجين، يكشفها دال المكان العام(مصر) بوصفه مسرحاً إيديولوجياً حراً مفتوحاً يُبيّح لهم، ما لا يستطيعون فعله في مكانهم المرجعي العام (الخليجي) المقيّد بموانع المكان ثقافياً وإيديولوجياً سنتعرف عليها لاحقاً من دال هذا المكان أيضاً. ولابدّ من الإشارة أنّ الأحداث التي تؤطر هذه الرواية تتمثل في مدّة حكم جمال عبد الناصر قُبيل الوحدة العربية بسنة وتنتهي في عام انفصال الوحدة(١٩٦١م). وهذه المدّة زاخرة بالأيديولوجيات والتنظيمات والأحزاب المتعددة والمتباينة في توجهاتها القومية والفكرية والدينية والمذهبية، على المستوى العام في الوطن العربي والخصوصي في مصر. ومن دلالة هذا المكان(مصر)، بوصفه البؤرة المركزية في تشكيل وتحريك الشخصيات نحو الحدث أو الأحداث، الذي يتجسّد ببعده المرجعي والجغرافي (القاهرة، الشقة) مسرحاً لتحولات الشخصية(الآخر) وصراعاتها وفق تمثلهم هنا آخرَ.

ويتشكل دال المكان هنا بمكان واحدٍ، مكان إقامة الآخر(الشقة) فقط، في محورين: يتمثّل الأوُّل في تشكيّل هندسة الشكل الإيديولوجي للشقة، وتمهيد عتبة المكان العام الجغرافي(مصر)، من خلال:اختيار اسم الشقة، وتحديد مواصفاتها، ووظيفة المكان (الشقة) وفعل الشخصيات فيها. ومن خلال الراوي، يُمهد دلالياً وسردياً للانتقال إلى تشكيل المحور الثاني، المتجسّد من سرد الشخصيات. ليُشكّل هذا دلالة اختراق الشخصية للمكان(الشقة). ومن هذه الدلالة يُسلط الضوء على كيفية تمثّل الآخر بإيديولوجياته، على وفق العلاقة الوصفية بين دال المكان ومرجع هوية الآخر، في تقاطب ثنائي. يشكل المحورين كليهما من التراتب أو التدرج المكاني، وفق أبعاد الآخر الإيديولوجي: المكاني والثقافي، والمناطقي، واللغوي، والمذهبي، وغيره.

وإذا كان العنوان بنية صغرى في تشكّيل أفق توقع وانتظار القارئ للبنية الكلية للنص أو الأحداث، فأنّ عنوان الرواية(شقة الحرية) هنا، لا يستثنى من ذلك، بدءاً من المكون اللفظي الأوّل الذي يُشير إلى دال مكاني مغلق(الشقة) يحمل دلالاته المرجعية المادية المعروفة بالمكان الاجتماعي بوصفه إطاراً للسكن والخصوصية، إلاّ أنّ هذه الدلالة تنزاح دلالياً من خلال المكون اللفظي الإضافي الثاني(الحرية)، الذي يُشير إلى دلالات فكرية مجازية ورمزية عامة، تُزيح وظيفة المكان الاجتماعي أو المكون اللفظي الأوّل، ليتشكّل من هذا المكونين إطار المكان الواحد للأحداث من خلاله، بُوصف((العنوان مقصدية من نوع ما، ربما تقود هذه المقصدية إلى مرجعية ما: ذهنية أو فنية أو سياسية أو مذهبية أو إيديولوجية. فالعنوان في الوقت الذي يقود القارئ إلى العمل هو من زاوية يخبرنا بشيء ما))[٢٦].

وإذا كانت دلالة العنوان يؤثث لمقصدية ما، فهذه القصدية لا يتم الكشف عنها أو التعرف عليها، إلاّ باختراق الشخصية للمكان أو لعلاقتها معه، ونتعرف على هذه العلاقة من وصف الراوي زمنية حركة انتقال(الطلبة) المكانية إلى مكان الإقامة، قائلاً: ((في صبيحة ١٠ مارس ١٩٥٨، انتقل الفرسان الأربعة إلى الشقة، رقم ٦، في الدور الثالث، من العمارة التي تقع في منتصف شارع الدري، كان أول قرار ينتظرهم، هو أسم الشقة)).[٢٧]

فالراوي يؤثث إطار أحداث المكان من خبر انتقال الشخصيات إلى مكان الإقامة (الشقة)، ليكون المسوغ الآتي سرد وصف جغرافية المكان، من تحديد موقعها(الشقة رقم ٦... شارع)، بوصف التحديد الجغرافي يُوهم بواقعية المكان المتخيل(الشقة)، ويُثبت حضوره في الذهن، فمادام المكان حقيقياً فكلّ ما يتصل به أو يحدث فيه، فهو حقيقي[٢٨]. ومن هذا الإيهام بواقع المكان أيضاً، يصف زمنية انتقالهم(صبيحة ١٠ مارس ١٩٥٨)، مثلما يصفهم مجازاً (الفرسان الأربعة) تعبيراً عن الدور السردي الذي ينتظرهم في هذا المكان. وبهذا يكون تأثيث المكان جغرافياً ووصفياً وزمنياً، دالاً، لاختراق الشخصيات للمكان(الشقة). وتأسيساً لهذا الاختراق المكاني يتشكّل دال فعل الشخصية، من دال التسمية الشقة(أول القرار)، تأسيسٌ لعلاقة الشخصية بالمكان كمكان دلالي، قائلاً:

((وتعددت المقترحات:

- الرفاع.
- الحدّ
- العُروبة.
- قال قاسم بمرارة :
- كل شيء هنا الآن اسمه "نصر".سموها "شقة نصر"، وارتاحوا أوشك الباقون أنْ يوافقوا نكاية في قاسم))[٢٩].

فمن هذا التأطير تتشكل الهندسة الخارجية للشقة من التسمية التي تعكس التوجهات الإيديولوجية للشخصيات، فاستدلالاً من هذه المقترحات أو التسميات، التي يُشير كل اسمٍ، إلى دلالة رمزية ما، قد ترتبط بمرجع فكري ديني(الرفاع)، أو مرجع ثقافي قبلي عشائري(الحدّ)* ، أو مرجع قومي وطني(العروبة)، يمكن أنْ نستدلّ من هذا على إيديولوجية الشخصية، ومن ضمنهم(قاسم البحريني) من مقترحه الأخير لاسم الشقة (نصر)، فمن سبب اختياره لهذا الاسم ووصفه بالإشارة المكانية(كل شيء هنا) التي تُحيل إلى الإطار الكلي للمكان العام(مصر) يمكن أنْ نفهم بأنّ الإطار المكان العام تؤطره إيديولوجية السياسة(كلُّ شيء اسمه نصر)، لتظهر علاقة المكان الجزئي المصغر الجغرافي(الشقة) بالمكان الكلي المرجعي، ولا ننسى أنّ تاريخ انتقالهم إلى الشقة(١٩٥٨) أثناء حكم جمال عبد الناصر، وما رافق هذا الحكم من أحداث وانتصارات ناصرية، أيْ إدلجة كلّ شيءً هنا، بهذه التسمية، تعبيراً عن إيديولوجياً المكان(مصر) بالفكر القومي. ومقترح (قاسم) لهذه التسمية ينطلق من رؤيته بتحقيق الانسجام الدلالي، بين دال المكان الجزئي(الشقة) ودال المكان الكلي(مصر). ولابدّ من الإشارة بأنّ(قاسم) لا يتبنى هذا الفكر القومي الناصري بل بالعكس تماماً، بدليل وصف الراوي لشعوره الداخلي(بمرارة) حين اقترح هذا الاسم. وهذا يعني بأنّ دلالة اسم الشقة تحمل مضامين إيديولوجية أخرى، وأحد هذه المضامين نستدلّ عليها، حين يتم رفض كلّ هذه المسميات،

ويتفقوا على اسم معين، يُعبر عن سبب اختيارهم لمكان الإقامة هذا، قائلين:((جئنا هنا لممارسة حريتنا، سوف نسميها "شقة الحرية" وافق على الاسم بالإجماع))[٣٠].

فهذه الرؤية لتسمية الشقة يكون المدخل لتأسيس علاقة الشخصية بالمكان، وفهم وظيفة مكان الإقامة وفعل الشخصية. فمن هذا الاتفاق الذي لا يدلّ على كسر الثنائية التقاطبية بين دال الاسم المكاني الجزئي(شقة الحرية)، ودال المكان العام(مصر: ناصرية) إيديولوجيا، أو لتحقيق الانسجام بين دال الاسم وغايتهم الإيديولوجية فقط، أنما على رفض أدلجة وظيفة المكان(الشقة) بمسميات دينيه أو قبلية أو سياسية.

فبعد أنْ أكتملت هيكلية تأثيث المكان خارجياً، بشكل تراتبي: بدءاً من تشكيل موقعها الجغرافي الذي مثلّ دالاً لانتقال الشخصية، ثم قرار تسميتها، الذي مثّل دالاً على علاقة الشخصية بوظيفة المكان، ثم الاتفاق على تسميتها، الذي مثّل دالاً على فعل الشخصية من خلالها. وإذا كانت دلالة وظيفة الشقة أو فعل الشخصية لا تتضح إلاّ بتشكيل هندسة الشقة داخلياً، فنتعرف على وظيفة مكان الإقامة هذا، من نقل الراوي لذلك، قائلاً:((كانت المهمة التالية هي وضع دستور ينظم الحياة في الشقة، وكُلِّف فؤاد ونشأت بصياغته. وجاءت المادة الأولى: شقة الحرية، جزء لا يتجزأ من الأمة العربية(...) وهي شقة ذات سيادة واستقلال، تقوم على مبادئ المساواة والعدل، والديموقراطية، وتُؤخذ القرارات بالأغلبية، ويجوز لأي عضو طرح أي موضوع للنقاش))[٣١].

فمن هذا التأثيث الداخلي للشقة، يمكن الاستدلال على الهيكل الخارجي لها، المُتمثل بمسوغ دلالة اسمها، بمعنى أنّ اسم الحرية تُشير دلالته الرمزية إلى حرية التعبير والتحرر من كلّ القيود الإيديولوجية السياسية والثقافية والدينية، والالتزام بمبدأ العدالة والمساواة كفكر وممارسة، لتحقيق الوحدة والديمقراطية بجزئها المكاني المُصغر(الشقة)، لتكون وظيفة المكان (شقة الحرية) مسرحاً لاختبار فعل الشخصية بتحقيق هذا المشروع الوطني المصغر، أو المعادل الموضوعي الرمزي لإطار المكان المرجعي الواقعي الكلي للوطن العربي(الأمة العربية)، مثلما يغدو أشخاصها أو أعضاؤها ينتمون إلى الهوية

الوطنية الواحدة. ووفقاً لهذا التشكل الهندسي للمكان(الشقة)، تنزاح عن دلالتها الأصلية، من صفتها أو دالها الاجتماعي إلى دالها الإيديولوجي، وفق لعلاقتها بالشخصيات (الطلبة الأربعة)، الذين تنزاح دلالتهم، من طُلاب علم إلى طُلاب مشروع سياسي أيضاً، ليتأسس المكان دلالياً ووظيفياً وبنيوياً. بوصف المكان هنا ((لا يظهر إلّا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه أو تخترقه(...) وعلى المستوى السردي فإنَّ المنظور الذي تتخذه الشخصية هو الذي يُحدد أبعاد الفضاء الروائي ويرسم طوبوغرافيته ويجعله يُحقق دلالته الخاصة وتماسكه الإيديولوجي))[٣٢] .

وإذا كان وصف المكان اضطلع بدور تشييدي، لبنائه ونسجه، بوصفه مكاناً دلالياً يحتضن الشخصية والحدث[٣٣]، فأنّ الحدث الذي يتجسّد داخلها لا يتمثّل خارج التشييد الوصفي الإيديولوجي، والمتمثل بفعل الشخصيات داخل شقة الحرية، وفق تراتب وظيفة المكان، أيْ الانتقال من خطوات تأسيس هندسة المكان دالاً على الإيديولوجية إلى تأسيس نوع الفعل الإيديولوجي داخلها، باختبار فاعلية مشروعهم السياسي(الوحدة العربية) الذي يتمظهر من مناقشاتهم الحوارية الديمقراطية المفترضة.ويتشكل أول حوار إيديولوجي ثقافي، حول أول قضية تُناقش في هذه الشقة، وهي قضية زواج زميلهم(عبد الكريم) البحريني الشيعي من(فريدة) المصرية السنية، ووفقاً لإشكالية هذه القضية التي تتجسّد من تنافر الصلة بين الطرفين(عبد الكريم/ فريدة)، تتشكّل أبعاد ودلالات مفهوم الهوية الواحدة، فبعد أنْ يُعلم:((عبد الكريم الشلة أنّه تفاهم مع فريدة مبدئياً على الزواج، جُوبه بصمتٍ قاتل، سرعان ما تحول إلى اعتراضٍ صاخب(...) يتدخل فؤاد:

- وماذا عن المذهب؟، كيف تتزوج سنية؟، هل توافق هي على أنْ تتزوج شيعياً؟، هل سيوافق أبوك على الفكرة؟(...) السؤال الذي أثاره فؤاد يتغلغل في خصره كالخنجر. سبق له أنْ بحث مع فريدة قضية المذهب(...) لكن النقطة التي أشار إليها فؤاد تدق ناقوس الخطر. أبوه! الشيخ!، هل سيوافق شيخ مشائخ شيعة البحرين على زواج ابنه بسنية؟ ومن مصر؟!))[٣٤].

ويدلُّ هذا الوصف السلوكي(الشلة) على صدمتهم أو رفضهم لهذا الزواج، من منظور تنافر العلاقة الانسجامية أو المرجعية بينهما، وأهم أسباب هذا التنافر، يتشكل من التقاطب المكاني المرجعي(مصر: بحرين)، والثقافي المذهبي(سني: شيعي)، في ثنائية متضادة لا يجمعهما أو يوحدهما صفة مشتركة أو مفترضة ربما(عربية، مسلمة)، وفقاً لرؤية الشخصيات(فؤاد،عبد الكريم)، في انفصال أولي للانتماء للهوية الواحدة الى تجزئة الهوية العربية الثقافية وانشطارها. ليتشكّل من هذا أوّل دال لوظيفة اشتغال المكان وفقاً للهوية الثقافية للشخصية في إطار مكان الإقامة(الشقة). وإذا كانت قضية الزواج، أظهرت انقسام الجزء المصغر من الأمة العربية، بوصف(فريدة) المصرية السنية، ليست جزءاً لا يتجزأ من(عبد الكريم) البحريني الشيعي. فأنّ مناقشة قضية تعدد الأحزاب السياسية والإيديولوجية في الوطن العربي ومشروع الوحدة العربية، سيؤدي إلى انهيار كلّي لفضاء الهوية الكلي(الوطن العربي)، من الحوار |أو المناقشة المحتدمة بينهما:

((يُقاطعه قاسم منفعلاً: أنت وفؤاد من السذج! ما هذا الكلام الفارغ؟! أحزاب! تنظيمات! وحدة عربية!(...) ولكن العرب أمة واحدة يا قاسم.هل تنكر ذلك؟

- كلام فارغ! أسألك بالله يا ماجد، هل السعوديون كالمصريين؟. لا بل أسالك هل السعوديون كالبحرينيين؟(...) هل تعرف ماذا نسمي المملكة في البحرين؟

- ماذا

– المهلكة.

– سامحكم الله(...) وأزيدك من الشعر بيتا. حتى في البحرين الصغيرة هناك سنة وشيعة. وسنة منامة وسنة محرق(...).

– ألاّ يوجد لديك أدنى شعور بالعروبة؟. طبعاً كلّنا عرب ولكننا عرب من أشكال مختلفة لا نُكونَ أمة واحدة.هل تفهم اللهجة الجزائرية؟!، أنا لا افهم نصف كلامك عندما ترطن بالنجدي (...) كفوا عن هذا الكلام السخيف عن امة عربية واحدة))[٣٥] .

فمن خلال الحوار الذي توجهه وجهات نظر متباينة، تنهار وظيفة دال المكان الإيديولوجي (الشقة/ الوطن العربي) الذي تأسست هندسته الداخلية على دستور الوحدة، ليتشكل وفق هذا الإطار إيديولوجيات متعددة الهويات، في مكان جغرافي واحد، وفق التقاطب المكاني و الإيديولوجي: مرجع مكاني(السعوديون، المصريون)، ومرجع ثقافي مذهبي(السعوديين، البحرينيين). مرجع ثقافي مذهبي في إطار مناطقي جغرافي واحد (شيعة البحرين، سنة البحرين، سنة منامة. سنة المحرق)، ومرجع ثقافي لغوي أو لهجوي(اللهجة الجزائرية، وغيرها). أيّ أنّ المكان المرجعي الكلي(الوطن العربي) يتجزأ وينقسم مثلما يتجزأ وينقسم المكان المصغر الواحد الجغرافي(الشقة)، لتتعدد الهوية بتعدد هذه التجزئة أو تعدد هويات شخصيات ساكنيه، لهذا تتداعى معمارية هندسة المكان أو المعادل الموضوعي لـ(شقة الحرية). بانهيار معمارية المكان الكلي الإيديولوجي دلالياً ورمزياً.إذ((لا تتألف الثقافات القومية من مؤسسات ثقافية فقط، وإنما من الرموز والتمثّلات الثقافية القومية، هي خطاب،أيّ طريقة في بناء المعنى، تُؤثر في أفعالنا ومفهومنا عن أنفسنا وتنظمها، والثقافة القومية تبني الهويات بإنتاج معان حول الأمة، تستطيع أن تتماهى معها))[٣٦].

إنّ كلا المحورين مثّلا تشكيل المكان(الشقة) بوصفه إطاراً للحدث المتمثل بتسليط الضوء على تعدد الهوية، من خلال اختراق الشخصيات للمكان، أو ((من خلال تأثيث المكان بالأشياء والشخوص))[٣٧]، بهدف تجسّيد مواقف الشخصيات وانطباعاتها وأفكارها وتحولات وعيها[٣٨]. ومن تفعيل العلاقة بين الشخصية والمكان الذي أسهم في تشييد بناء النص الداخلي وحقق استباقاً دلالياً في الرؤيا والدلالة[٣٩]. وهذه الدلالة تّدرج في تقديّم وتشكيل المكان وفق التراتب الوظيفي له. ولابدّ من الإشارة إلى أنّ هندسة تشكيل وظيفة المكان(شقة الحرية) خارجياً وداخلياً، توافقت مع هندسة تشكّل الحدث داخلها، من فعل الشخصيات المتسم بالحوار الإيديولوجي.

من هذا يمكن القول إنّ دلالة المكان الإيديولوجي، بين المكان الجغرافي المصغر (الشقة) والمكان الكلي(مصر)، وعلاقتهما بالشخصية(الطلبة الخليجيين)، مثّلت تجسّيد هذه الشخصية الخليجية آخرَ من تُمثلها بسلوك أو توجه إيديولوجي متعدد ما كان له أنْ تكشف دلالته أو تمثّله هذه، لو تمثّل، في إطار مكانهم العام المرجعي المغلق في أيّ بلد

خليجي، لتتشكل من هذا وظيفة المكان البنيوية.أي بوصف المكان مسرحاً للدلالات والإحداث.

وإذا كان اختراق الشخصية للمكان العام في رواية(شقة الحرية) كشف عن وظيفة دال المكان الإيديولوجي مثلما كشف عن مدلول الشخصية، فأنّ اختراق الآخر في رواية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) لمكان الذات العام سيكشف مدلول الآخر أيضاً، وسيؤكد ما جاء به دال المكان الضيق(الشقة) في مصر من تعدد وانشطار الهوية الوطنية الواحدة في الوطن العربي أو في المنطقة الواحدة في الخليج العربي، بإبراز إيديولوجية الهوية الضيقة، من خلال قضية البدون في المكان العربي الخليجي الكويتي. ولابدّ من معلومة إيضاحية، بأنّ البدون الكويتي لا يُعامل وفق مُعاملة الذات الكويتية، أيّ وفق حقوق المواطن الكويتي، ومن هذا يتمثّل التقاطب المكاني الاجتماعي بينه وبين الذات الكويتية إيديولوجياً. ويُجسّد هذه الدلالات شخصية(منسي) البدون.

إلا أنّ إشكالية(منسي) لا تتشكّل من شعوره بالمُغايرة الطبقية الاجتماعي والاقتصادي مع الذات الكويتي، أنما من المُغايرة الانتمائية بشعوره بالانتماء إلى المكان الذي وُلد فيه (الكويت)، وليس إلى المكان الذي ترجع أصوله إليه، ومن هنا تتجسّد إشكالية(منسي) الذي لا يعيّ أو يتجاهل بأنّه غير منتمٍ إلى هوية المكان الكويتي، رغم كلّ المؤشرات والدلائل التي يبثها الذات له من خلال أمكنته الجزئية الرسمية، والتي تدلّ بأنه غير مُماثل ومرفوضاً بأنْ يكون منتمياً. ومن هذه الرؤية أو من الإشارات المبثوثة عبّر أمكنة الذات الكويتية، يسترجع (منسي) تلك الإشارات، التي تُثبت بأنّه لم يكن منتمياً، في قراءته للماضي من زمن وعيه الحاضر حضوره في أمكنة فضاء الذات المتعددة، في ضوء وعي بالحاضر أو بمفهوم الهوية الإيديولوجية، لِيعيد تشكيل هويته من رؤية الذات الكويتية له، وليفسر وضعه بوصفه بدون وفق إطار مكان الهوية. وتتشكل هذه الأمكنة الجزئية، من الأمكنة الرسمية التي تكون جزءاً من مؤسسات الدولة، المتمثلة بـ: المسرح الذي يعمل فيه، المدرسة التي درس فيها، دائرة الجنسية التي كان يذهب إليها مع والدته،لأجل الحصول على الجنسية الكويتية، البيت الذي يعيش فيه هو وأمه، رغم أنّ مكان الإقامة لا يمثّل مكان رسمي إلاّ أنّه يصف وضعه الإيديولوجي منه خلاله. ليتمثّل من هذا الامتداد المكاني للآخر في إطار امتداد موقف الذات الكويتية، وفق ثنائية تقاطبية متعارضة، لهذا تتشكّل شخصية الآخر من الأمكنة المتدرجة التي تنبئ بذلك، ويتجّسد السرد من خلال سرد الشخصية الساردة(منسي).

يتشكل المحور الأول للأمكنة التدريجية أو الجزئية المُسترجعة وفق المراحل العمرية(لمنسي)، ففي سن العاشرة كان يعمل في مسرح الخليج الكويتي، لمُساعدة والدته المريضة،التي كانت تعمل عاملة نظافة في أحدى المدارس الكويتية، مثلما كان يعمل هو عامل نظافة في المسرح. ومن دال وصف علاقته بالمكان، يُشير إلى مدلول هويته، قائلاً:((الساعة الآن جاوزت الثانية، بعد منتصف الليل، رغم دوي جهاز التكيف تناهى إليّ صوت إطباق باب، لعل الشاب السيرلانكي كومار غادر غرفته قاصداً دورة المياه، مقر مسرح الخليج، هنا لا يختلف كثير عن ذاك الذي كان في منطقة النقرة، صباحات أيامنا السالفة شبيهة بأيامنا هذه، يخلو المقر من الأعضاء،هُمُّ كلّهم كويتيون، والكويتيون كلّهم موظفو دولة، لأنّي الفرّاش حينها اعتدت انجاز مهام التنظيف دون مضايقة أحد))[٤٠].

يتشكل دال المكان الداخلي(المسرح) المغلق، من خلال علاقة الشخصية به أو وظيفته فيه، وتتشكّل هذه، من ثنائية التقاطب الوظيفي لتقاطب الهوية المكانية، لتتشكّل من هذا وظيفتين متباينتين، تُميّز الذات عن الآخر، وظيفة الجنسيات المختلفة/ عامل النظافة(السيرلانكي كومار، ومنسي). ووظيفة الكويتيون/ الأعضاء(الكويتيون كلّهم موظفو دولة).

فمن دال المكان أو من دال وظيفة الآخر في المكان، يمكن رصد مَنْ ينتمي ومَنْ لا ينتمي للمرجع المكاني(الكويت).أيّ أنّ غير المنتمي تكون وظيفته عامل خدمة النظافة أو وظيفة غير حكومية.أمّا المنتمي، فتكون وظيفته حكومية، وهذه الدلالة لا تتمثل وفق التراتبية الاجتماعية بين المركز والهامش، بل وفق الدلالة الإيديولوجية أو الهوية المكانية للشخصية. ليُشير هذا دلالياً إلى أنّ(منسي) لا ينتمي إلى مكان هوية المرجع المكاني للأعضاء. أيّ أنّ هناك علاقة دلالية وبنيوية بين وظيفة الشخصية وهويته المرجعية المكانية.

وإذا كان المسرح شكل إطار هوية الآخر غير المُماثل، من دال الوظيفة، فأنّ المكان الجغرافي التراتبي الرسمي الآتي، سيشكل هذه الدلالة أيضاً، قائلاً أو مستذكراً:((مدرسة المتنبي المتوسطة للبنين، الطابور الصباحي، مراسم رفع العلم(...) كنا خليطاً، فينا الكويتي، المصري، الفلسطيني، العراقي، السوري، دول أخرى، تنبهتُ أول ما تنبهتُ إلى أنَّ

بعض الصبية الفلسطينيين يتريثون ما بعد كلمة وطني، ثم يهمسون بمفردة فلسطين، شيء أشبه بالعدوى، سمعت صبية آخرين يغمغمون أسماء أوطانهم اعتزاز أو نكاية بمراسم مرعيّة الكويتيون، تحديداً كانوا يصدحون عاليا بمفردتهم، أنا بينهم، وما ترددت أو تشككت لولا لكزة في خاصرتي وجهها كوع جاري في الطابور وكان سورياً.أنتَ غيرَ كويتي.لا أدري إن كان توبيخاً أو شماتة، وأدري إنّ كشوف حضور الطلبة وغيابهم، كشوف درجاتهم، الأوراق الرسمية للمدرسة كافّة، أنا في خانة منها غير كويتي، إنْ كنت كذلك،أنا ماذا،أمر ثان حفر له مكاناً في وعي أبن العاشرة، الزي المدرسي المعتمد))[٤١].

تتشكل هندسة المكان الجغرافي للمكان المغلق(ساحة المدرسة) من دال الوظيفية المُعتادة، إلاّ أنّ تمثّل المكان تجسّد من خلال مراسيم رفع العلم المُصاحب للنشيد الوطني الذي يرمز إلى مكان الهوية الوطنية، والمتشكلة في إطارها علاقة الطلاب أو الجنسيات المتعددة بالمكان المرجعي العام(الكويت)، ليُشكل دال المكان دالاً لهوية مرجع الشخصية. ومن هذه العلاقة تتشكل ثنائية تقاطبية للهوية:هوية الذات(الكويتية)، وهوية الآخر (المصري، الفلسطيني، العراقي، السوري) من خلال التلفظ بلفظة الوطن المرجع المكاني كوعي بالهوية الوطنية والشعور بالانتماء وفق المرجع المكاني الأصلي، إلاّ أنّ هذا الوعي بالانتماء للمرجعي المكاني الأصلي غير مُتمثّل لدى(منسي) من خلال تلفظه بمفردة (الكويت) على خلاف الآخرين من الجنسيات الأخرى، انسجاماً مع شعوره الداخلي بالانتماء، رغم علمه أنّهُ لا ينتمي رسمياً لهذا المكان وفق الأوراق الرسمية، والزي المدرسي، الذي يُشير إلى تأطير هذا المكان الرسمي بإطار إيديولوجية الهوية الوطنية (النشيد الوطني، الأوراق الرسمية، الزي المدرسي)، وكلّ هذه الإشارات الدلالية يبثها الذات تأسيساً للهوية الثقافية المكانية الإيديولوجية، وتميز الذات عن الآخر المختلف الجنسية، لذا فـ(منسي) غير منتمٍ لهوية المكان الأصلي وأنْ كان يحمل شعوراً وطنياً بالانتماء.

وإذا كان المسرح والمدرسة جزءاً من الأمكنة الرسمية، وبهذا يكون طابع الهوية الوطنية متجسداً فيهما تلقائياً، فأنّ مكان الإقامة الاجتماعي يحمل انعكاس هوية المكان الاجتماعي إلاّ أن مدلوله الوصفي يشي بإيديولوجية ما، حين يكون التمايز الاجتماعي مقصوداً،

ونفهم هذه الدلالة من وصف(منسي) لمكان إقامته هو ووالدته، قائلاً:((أمي وأنا نسكن ملحقاً أرضياً في مبنى يتألف من ثلاثة أدوار، يقع على زاوية طريق جانبية تتصل بشارع موسى بن نصير، في منطقة النقرة، بما يُسهّل بلوغي مقر عملي في مبنى مسرح الخليج مشياً، ملحقنا عبارة عن غرفة واحدة للنوم والمعيشة وممر ضيق يفضي إلى مطبخ يتصل بدورة مياه))[٤٢].

قد يبدو من هذا الوصف لجغرافية موقع بيته وهندسة شكله الداخلي(غرفة واحدة، وممر ضيق، ملحق أرضي)، إشارة إلى الدلالة الظاهرة التي تُصف وضعهم الاجتماعي أو الاقتصادي المزدري من خلال الأبعاد الهندسية للمكان أقامتهم(المساحة، الضيق، الأسفل)، إلاّ أنّ هذا التشخيص يحمل دلالتهُ المضمرة أو المرتبطة بدال الهوية أيضاً، ونستدلّ على هذه الدلالة، من استنكار أحد جيرانه(منسي)، وهو فلسطيني من وضع إقامتهم السكني والمعاشي هذا، قائلاً له:((أنت وأمّك تتشاركان السكن هنا. هذا صحيح. الكويتيون عادة لا يعملون في الخدمة، ولا يسكنون ملاحق. صدرت عني ضحكة مفارقة خافتة. نحن كويتيون على الريحة))[٤٣] .

وإذا كانت دلالة هذا السياق تؤكد وتكشف علاقة دال المكان بالهوية الوطنية أو بالمنتمي وغير المنتمي في مكان الذات(الكويتيون) تشخيصاً لإنميازية الآخر من خلال مكان الإقامة، ولتؤكد بأنّ (منسياً) غير مُماثل للذات، فأنّ هذا السياق يكشف أيضاً، عن ترويج(منسي) بين جيرانه بأنّه ينتمي لهوية هذا المكان(نحن كويتيون)، ومن هذا كان سؤال الجار له بأسلوب استنكاري لوضعه الاجتماعي أو الاقتصادي وهذا دليل آخر على رغبة أو شعور(منسي) بأنّه منتمي. ليتشكل من هذا فاعلية دال وصف المكان لحمولات دلالية تُجسّدها الإيديولوجية في ثنائية تراتبية طبقية اجتماعية واقتصادية ودلالية في إطار مكان هوية المنتمي.

وبعد أنْ تشكّل دال المكان وصفاً لوضع هوية اللا منتمي والمنتمي: إيديولوجياً، واجتماعياً، واقتصادياً، ودلالياً، من إطار دال الأمكنة الجزئية، يتشكّل دال هويته من الإجراءات الرسمية في الدائرة الحكومية أيضاً، بوصف هذه الإجراءات تخضع لقانون

المكان العام أيضاً، حين يتذكر ما قاله أحد أعضاء لجنة منح الجنسية الكويتية لوالدته، حين كان يذهب معها لدائرة الأحوال المدنية لغرض الحصول على الجنسية، قائلاً لوالدته:((لو عندكم وثيقة بيت باسمكِ أو باسم المرحوم زوجك، تسهلتْ مسألة منحكم الجنسية أنتِ وولدك(...) شاغلني سؤال حاد مازال يجول داخل رأسي، أيّهما مرهون بالآخر، وثيقة تملك بيت أو وثيقة انتماء لوطن)).[٤٤]

تتشكّل هندسة هذا المكان الجغرافي(الدائرة) وفق دالها الوظيفي الرسمي، بوصف هذا المكان ينتمي إلى مؤسسات الدولة، ومن هذه الصفة، تتخذ إجراءات منح الجنسية وفق ضوابط محددة قانونية لهذا المكان، وإحدى هذه الضوابط، الورقة الرسمية، أو وثيقة تملك البيت، ليتجسّد من هذه الضوابط الرسمية المكانية(لو عندكم وثيقة) دلالة مجازية تُقارب بين دال مكان تملك الإقامة(البيت) الذي يحتاج إلى أوراق رسمية لتملكه، ودال المكان العام تملك الجنسية الذي يحتاج إلى أوراق رسمية أيضاً، ليتشكل دال الهوية الوطنية، في ثنائية تلازمية في مقابل ثنائية تناقضية: لا وثيقة بيت لا منتمي للوطن، وهذا المؤشر الأخير الذي يثبت بأنّ(منسي) لا ينتمي إلى مكان هوية الذات،لأنّه بلا بيت في هذا المكان. لقد شكلت هندسة الأمكنة الجزئية الجغرافية من خلال تراتبية الأمكنة الرسمية والاجتماعية، دال هوية البدون(منسي) في إطار فضاء الهوية الإيديولوجية لمكان الذات، ترميزاً تأسيسيا للإنباء بهوية (منسي) البدون من هذه الأمكنة التي جاءت بالتراتب، وبالمكان الإنبائي الذي يُنبئ بطبيعة الأمكنة التي تليه، مثلما يُنبئ بظروف ومصير الشخصية فيها[٤٥]، أيْ أننّا يمكن أنّ نتنبئ بمصير(منسي) وفق دلالة هذه الأمكنة المتتالية تباعاً في تواتر تأكيدي بانشطار الهوية الواحدة إلى هويات ضيقة للإيديولوجية المكان.

وقد جاءت الأمكنة وفق تراتبها المكاني: الرسمية والاجتماعية، كشفت عن انفصال الآخر(منسي) عن مكان الهوية المرجعي العام، بكّل أبعاده الدلالية، ومن هذه الدلالة تجسّدت سببية الاسترجاع لتفسير ووصف كيفية تمثّل هوية للآخر أو للبدون في استمرارية زمنية، شكلت علاقة دال المكان بالهوية الوطنية، وفق منظور الذات الرسمية، الإيديولوجية الثابتة تجاه الآخر، ومثّل المكان وظيفة دلالية وبنيوية في تمثّل هذا.

إنّ المكان العربي والخليجي(المصري، الكويتي)، في النموذجين كليهما مثّلا دال الهوية الإيديولوجية الثقافية(شقة الحرية)، والهوية الوطنية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) من دال وصف المكان أو علاقة الشخصية به، في إطار مكاني لحضور هوية مرجع الآخر المختلف: اجتماعياً واقتصادياً ودينياً ومذهبياً وقومياً وإيديولوجياً. بمعنى آخر تأطر هذا المكان هوية، وفق تعدد الهوية وانشطارها، في ثنائية تقاطبية مكانية دلالية، مثلت حالة الانقسام والتجزئة أو حالة تحييد وتمييز وعنصرية إيديولوجية ما، إذ((تُشكل الثقافات القومية، التي نولد فيها واحداً من المصادر الأساسية للهوية الثقافي(...) يستتبع ذلك إنَّ الأمة ليست كياناً سياسياً فقط، إنما هي أيضاً شيء ينتج معاني- أي أنَّها نظام من التمثل الثقافي.ليس الناس فقط مواطنين قانونين في أمة،إنهم يتشاركون في فكرة الأمة كما هي متمثلة في الثقافية القومية.الأمة هي جماعة رمزية، وهذا الشيء الذي يفسر سلطتها في توليد حس بالهوية والولاء))[٤٦].

من هنا أدّى المكان وظيفة بنيوية ودلالية، وفق علاقة شخصية الآخر بالمرجع المكاني. ومن جهة أخرى مثّل المكان حمولات دلالية متباينة، وفق وظيفته من دال وصفه الشكلي أو من صفاته الإيديولوجية والاجتماعية. وتمثل دال المكان العام من خلال الأمكنة، في كلا النموذجين، ترميزاً وتمثيلاً ومعادلاً موضوعياً للمكان العام والكلي المتمثل بالوطن، من خلال تحولاته وفق علاقة الشخصية به، ولا بّد من الإشارة إلى أنَّ العلاقة الدلالية والرمزية بين البيت والوطن كانت متجسدة في هذا الانزياح الدلالي، ففضاء الهوية تشكل من اختراق الآخر للمكان المختلف، وفق دلالات المكان الإيديولوجية التي مثلت ثنائية تقاطبية كشفت هوية الآخر، بين تعددها وانشطارها وبين مرجعيتها الأصلية. وتمثّلت الآخر بالآخر العربي المتعدد لمرجعيات الثقافية التي فسرت انشطار الهوية من منظور الذات الثقافي أو الإيديولوجي تجاه هذه المرجعية للآخر.

ثانياً: المكان الأجنبي: دال الغياب/ الحضور :

يتشكل دال المكان الغربي بوصفه إطاراً مكانياً دلالياً لتمثّيل حضور أو غياب شخصية العربي في هذا المشهد المكاني. ويتجسّد هذا وفق محورين: محور ثقافي إجتماعي، يُمثل

غياب شخصية العربي الخليجي، مُتمثلاً في نموذج، رواية(الحياة كما هي)، التي تُجسّد سنوات مرحلة السبعينيات، حيث كان حضور الهوية العربية أو الخليجية في الغرب باهتاً وغير مؤثر، فهويته الثقافية أو الاجتماعية غير واضحة المعالم لدى الغربي. يُقابله الحضور الفاعل والمدوي لشخصية العربية من دال هويته الثقافية الدينية، في إطار المحور الإيديولوجي لهذه الهوية في المكان الغربي، بعد أحداث سبتمبر، التي تمثل حضور هذه الهوية الثقافية بوصفه حضورا خطراً ومرفوضاً*. ويتجّسد هذا في نموذج، رواية (أوراق طالب سعودي في الخارج). وفي النموذجين كليهما، يُجسّد المكان الغربي إطار دلالياً لعلاقة ورؤية الذات مع الآخر.

يتجسّد المكان الغربي في رواية(الحياة كما هي) من خلال وجود الطالبة(مهرة) الإماراتية التي تأتي إلى الولايات المتحدة للدراسة في فترة السبعينيات. وبوصف مهرة فتاة قادمة من مكان ثقافي مغلقاً إلى مكان مفتوح ثقافياً، يتشكّل دال الاتصال والانقطاع بين مكان الآخر ومكان الذات وفقاً لهذه الرؤية. ويتشكّل ذلك من مكان التنقل الذي يتأطر بالمكان المفتوح (شوارع) مدينة نيويورك، حيث تتجول وتنقل(مهرة) فيه. ويجسّد دال المكان(التنقل) دالاً في تشكيل الرؤية الثقافية والاجتماعية للآخر العربي(مهرة).

يرصد الراوي من خلال حركة وعين الآخر(مهرة) اختراقها لشوارع مدينة نيويورك، الأماكن المتعددة، التي تُؤثث المشهد اليومي للمكان المفتوح المرئي لمدينة نيويورك، والذي يعكس انطباعها الأولي من هذا المشهد، فقد كان:((أول انطباع راودها، وهي تتجول في مدينة نيويورك، أنَّها مدينة أليفة وكأنَّها تعرفها من قبل.. كانت تتجول على هواها في شوارع مانهاتن، الشوارع المرقمة، تقودها بيسر في المدينة إلى العمارة التي تستضيفها في مانهاتن . مطاعم فاخرة ومتنوعة، إيطالية، صينية، يابانية، فرنسية، ميدل إيستيرن. محلات الأكل السريع، بيتزا، مكدونالز(...) المقاهي، المكتبات، الديبار تمنيت ستورز، محلات الأزياء))[٤٧].

يمكن رصد هذا المشهد المكاني من هندسة جغرافيته الذي تؤطره رؤية الآخر(مهرة) لتُجسد دلالات المدينة، من خلال شوارعها، في سياقين دلالين، الأوُّل: سياق وصف الطابع الثقافي الحضاري الذي يطبع هذه المدينة بدال الوصف(أليفة)، من دال ترقيم

شوارعها مما يجعله أمكنة منسقة ومنظمة وجميلة وفق الهندسة الحضارية، مما يجعل حركة التنقل سهلة وميسرة لأيُّ غريبٍ. فقيمة المكان الخارجي تتأسس من رؤية الشخصية لأثره عليها، فتسقط عليه كلّ قيمة حضارية تفتقدها في مكانها المرجعي. أمَّا الدلالة الثاني والمهمة هنا، فتتشكل من تعدد الأمكنة المتنوعة الدلالة، ومنها تعدد المطاعم بتعدد الجنسيات التي فيها، وهذا يُشير إلى دال المكان من دال حضور الآخر فيه، ومن هذه الدلالة، أيْ من ارتباط حضور الأمكنة بحضور الجنسيات المختلفة، نستطيع أنّ نستنج غياب الحضور العربي، بغياب المطعم العربي، في هذا المشهد المكاني. لنشخص وظيفة المكان من دال الوصف الخارجي تفسيراً للعلاقة الشخصية بالمكان. ومن هذا الدلالة لغياب الشخصية العربية وتأكيداً لهذا، ننصت للحوار الخارجي بين (مهرة) وبين بعض المارة من الأمريكيين أثناء تجوالها هذا، فقد كان بعضهم يظنّ بأنّ ملامحه الخارجية أو لون بشرتها السمراء، يُحيل إلى مكان هوية ما، فـ:

((كان بعضهم يسألها:

-" هل أنت من تشيكانو؟".

لم تعرف معنى الكلمة، وأدركتْ فيما بعد أن تشكانو، تعني الأسبان الأميركيين، أو ذوي الأصول الأميركية اللاتينية. حيثما ذهبت مهرة، لا أحد يسألها إن كانت عربية، يفترضون أنّها من أميركيا اللاتينية، إسبانية، يونانية، هندية، وحين تُجيبهم بأنَّها عربية، لا يعرفون معنى ذلك، ثم يختصرون المسألة بأنها من "الميدل إيست"، أمّا حين تقول بأنَّها من الخليج العربي فأنّهم يجهلون ذلك، ثم يتذكرون خليجاً آخر،الخليج الفارسي، وحين تقول مهرة إنّها من الأمارات فهذه بالنسبة إليهم كلمة تشير إلى كوكب جديد تم اكتشافه وليس إلى بلد آخر))[٤٨].

فالراوي يُسلط الضوء على غياب الشخصية العربية، ليس فقط من غياب المكان(المطعم العربي)، أنما من المؤشر المكاني التكراري لسؤال الهوية، أثناء تنقلاتها الحركية في هذه المدينة(حيثما ذهبت)، تُوطره رؤية الذات الأميركية الجهالة بدال هويته المرجعية المكانية، الذي لا يُشير بوصلته الدلالية إلى مرجعها المكاني الأصلي(لا أحد يسألها إن كانت عربية)، بمعنى أنّهم يجهلون الملامح العربية السمراء؛ لأنّهم يجهلون الشخصية العربية نفسها، لذا يُوجهون بوصلة هويتها إلى مرجع مكاني مُغاير(الشرق الأوسط، الخليج

الفارسي، كوكب جديد) أيْ خارج مرجعيتها المكانية الخليجية أيضاً. وإذا كانت ملامح(مهرة) مثّلت انطباعهم عن جهلهم بالشخصية العربية من خلال إحالتهم إلى مرجع مكاني خارج مرجعها، فأنّ جهلهم بالهوية العربية الثقافية كحضارة يجعلهم:

((يسألونها أسئلة غريبة:

هل أتيت إلى أميركا على جمل؟".

هل تعرفون البيض والدجاج؟".

هل ترتدون ثياباً هناك أم أنّكم عراة مثل أفريقيا؟".

هل شاهدتم التلفزيون من قبل، أ لديكم ماء مثلّج ودايت وبيبسي هناك؟"!))[٤٩].

ومن هذه الرؤية المُتشكلة من الأسئلة الغريبة، يتبين أنّ تُشكّل هندسة المكان الجغرافي للوطن العربي لدى الرؤية الأميركية يتجسّد بهندسة الصحراء والتخلف الحضاري، أيْ بماضي هذه المرجع المكاني، الأمر الذي يُشير إلى دلالة جهلهم بالتطور الثقافي الحضاري العربي في الوقت الحالي، كدال ليس على الغياب الثقافي الفعال للشخصية العربية في الغرب، أنما على الانغلاق الثقافي والانقطاع بين القطبين المكانيين الغربي والشرقي، من غياب الحضور العربي في الغرب، وغياب الحضور الغربي في الشرق. فدال مكان التنقل، بوصفه مكاناً مفتوحاً وعاماً، مثّل محطة مكانية للقاء الآخر والذات وكشف عن الرؤية بينهما. فتجسّدت بين رؤية الآخر العربي(مهرة) المنبهر بثقافة وحضارة الغرب، وبين رؤية الذات الغربية(المارة الأميركيين) المستخفة أو المُهمشِة لثقافة وحضارة العربي. أيْ في ظلّ ثنائية تقاطبية مكانية ثقافية وحضارية، شكّلها دال الحضور والغياب من المشهد المكاني. وإذا كان المكان المفتوح كشف عن رؤية عامة الناس من المارة الأميركيين تجاه الآخر العربي ثقافياً وحضارياً، فأنَّ انطباع والدي صديقتها الأمريكية، يُؤكد جهل الشخصية الغربية الأميركية بشخصية العربية شكلياً وثقافياً. حين ((أطرت مسز جونسون على جمال مهرة بنت عبيد ووصفته بالاكزوتيكي. وسألتها إنْ كانوا يأكلون الكثير من الفاكهة الاستوائية في بلدها للحصول على مثل هذه البشرة ذات السمرة المتوردة. سألها مستر جونسون عن بلدها، وأهلها، ودينها، وعندما ذكرت له مهرة بأنّها مسلمة، أجابها:

-" نعم، نعم، إنّهم يعبدون راما، أليس كذلك، أنّهم محمديون".

لم تعرف مهرة كيف تردُّ عليه أو من أين تبدأ معه، غير أنّها حدثته قليلاً عن الإسلام، والعرب، وتجنبتْ الحديث عن الخليج خوفاً من بذل المزيد من الشروحات لهذا الرجل العجوز المهذب)).[٥٠]

فالسياق الأخير يُكمل تأثيث دال رؤية الذات الغربية للآخر العربي، من دال الجهل بالملامح العربية كما مر بنا سابقاً، إلى الجهل بالهوية الثقافية الإسلامية أيضاً، ومن هذه الإشارات السردية التي تُكرر لازمة الجهل بالشخصية العربية من دال المكان، تأكيداً على غياب حضور الشخصية العربية الفعالة، مما يُعزز دال ثنائية الانقطاع والتواصل. ليتشكّل من دال المكان مدلولُ أبعاد العلاقة والرؤية بين الآخر بالذات أو بالأحرى علاقة المكان الشرقي بالمكان الغربي في هذه المرحلة، لتكشف دلالات الغياب أو الانقطاع أثرها على هذه الرؤية .ومن إطار المكان المفتوح سُلط الضوء ليس على غياب الشخصية العربية، بل حضور الصورة الثقافية والحضارية النمطية البدائية للعرب(عراة، والجمل)، يُقابله الصورة الثقافية والحضارية للتطور الغربي. من هذا شكل دال المكان الغربي أو الأميركي إطاراً جغرافياً ودلالياً، كشف عن التقاطب الثنائي الاجتماعي والثقافي لرؤية بين الآخر(العربي: الخليجي) والذات(الأميركي) من خلال الإشارات المكانية لثنائية: بين الانبهار والتجاهل، وبين الانغلاق والاتصال.

وإذا كانت رواية(الحياة كما هي) مثّلت هذه الرؤية الذهنية النمطية لثنائية تقاطبية بأثر فاعلية الغياب والحضور لشخصية العربية، فأنّ رواية(أوراق طالب سعودي في الخارج) سيُمثّل الصورة المعاكسة لفاعلية الحضور العربي المدويّ للهوية الثقافي في المكان الغربي، لكن بفاعلية سلبية الأثر شكَّله منظور الذهن الغربي تجاه هذه الهوية بعد أحداث ١١ سبتمبر، حيث الحضور العربي الإسلامي، بوصفه حضوراً خطراً وعنيفاً. لتتجسد ثنائية التقاطب المكاني الدلالي، بين المكان الشرق والمكان الغربي من دال الهوية والمنظور الإيديولوجي برفض هذا الحضور.

ويجسّد حضور الشخصية العربية هنا،(محمد) السعودي من وجوده في مدينة نيوزيلندة لغرض الدراسة. ولعل العنوان يُشير إلى البنية الكلية لنص، المتُجسدة في

علاقة الشخصية أو سبب وجوده في المكان الغربي كإطار للحدث. ويتشكّل هذا الإطار المكاني من الأمكنة الجزئية للمكان العام(نيوزيلندا)، بتسليط الضوء على الرؤية الذهنية النمطية لصورة الهوية العربية الثقافية الإسلامية في ذهن الذات الغربي الرسمي والجماهيري. من دال عتبتين مكانيتين، أولاً، عتبة وصوله إلى نيوزيلندة، التي تُشكلها: الأمكنة التراتبية لمكان التنقل في المطار(مطار أوكلاند) عتبة دخول المطار، عتبة الخروج، الممر، غرفة التحقيق. ثانياً: الأمكنة الجغرافية التي تُشكل حضور(محمد) في مدينة نيوزيلندة، التي تتشكّل من حركة الانتقال التراتبية لـ(محمد) في الأمكنة العامة فيها، وتتشكل من: الفندق، مصلى المعهد الذي يدرس فيه، محطة النقل العام. ومن خلال العتبتين المكانيتين، يتشكل دال تمثّل الآخر في المكان الغربي إيديولوجية.

إنّ المكان الهندسي لعتبة مطار أوكلاند يُجسد اختراق الآخر لمكان الذات، ومن هذا الاختراق تتشكّل الرؤية والعلاقة، في أوّل وصول لـ(محمد) من رصده نظرات المارة من عامة الناس(الغربيين) حيال شكله الخارجي الذي يُحيل في منظورهم الذهني إلى هوية ثقافية ما، قائلاً:((نزلتُ من الطائرة، وفي يدي حقيبتي اليدوية، ورقة لابد من تعبئتها في الطائرة قبل الوصول، لكي تفتح لك هذه الدولة أبوابها، سرتُ في المطار أتبع الركاب القادمين لأضمن سرعة الوصول. بدأتُ ألحظُّ النظرات المتشككة الموجهة إليّ من الركاب وموظفي المطار، لم أكن متعجباً، فعندما تكون ملامحك عربية، وملتحياً ومرتديا معطفاً أسود، فالتهمة ثابتة عليك لا محالة(...) ففيها إحساس بأنّي (مشتبه به) وهذا كاف!.بعد أنْ أخذتُ حقيبتي،أقبل رجل أمن ومعه كلب، جعله يشتم حقيبتي(...) تبسمت في داخلي، وأنا أشعر بمرارته، ففي نظره أنا مشروع إرهابي جدير بتوقيفه والتحقيق معه، ولكنه وللأسف لم يجد دليلاً يُثبت به نظريته))[٥١].

أولاً، تتشكّل هندسة هذا المكان من تأطيره بالإجراءات القانونية، شرطاً لعتبة دخوله(لكي تفتح هذه الدولة أبوابها)، مثلما يتأطر الآخر بهويته الثقافية(ملامح، ملتحياً، معطفاً أسود)، من إشاراته الشكلية التي يبثُّها مرجعه المكاني في الذهن الغربي، ومن هذا المرجع

يكون(محمد) في وضع المستثنى من المسافرين من جمع الجنسيات الأخرى، بإجراءاتهم الرسمية تجاهه لأنّه يحمل هوية مرجعه المكاني(ملامحه العربية) التي تسبقه بتهمة الإدانة(مشروع إرهابي)، أيْ يتأطر هندسة المكان بالإيديولوجية، ليغدو(محمدٌ) معادلاً موضوعياً لمكانه الشرقي أو لهويته الثقافية للمسلمة، بوصفه آخر عدو(خطراً).

ومن هذا التأطير يُمنع دخوله(محمد) بسلاسة ويسرٍ بوصفه المستثنى، لهذا تستمر إجراءات التفتيش والتنقيب معه، وفق إطار التراتب المكاني للمطار، ليصل((بوابة الخروج، عندها استوقفني أحد الضباط وسألني عن ورقة الدخول التي قمت بتعبئتها في الطائرة، مددتها له برهبة، نظر إليها بسرعة ورفع عينيه نحوي بنظرة أشعرتني بأنَّني أحمل مرضاً معدياً، ووضع علامة(x)، حمراء على الورقة وناولني إياها وهو يبتسم ابتسامة الظفر، وكأنَّ عينيه تقول والآن: (أخيراً أوقعت بك)، ثم قال:

- من فضلك تقدم نحو ذلك الرجل.

وأشار إلى ضابط يقف في آخر الممر كان يساعد امرأة كبيرة السن على النهوض وهو يبتسم لها،(...) فتوجهت نحوه (...) وسرعان ما تلاشت تلك الابتسامة من على شفتيه، ووضع يده على السلاح المعلق في وسطه، واستعد لمقابلة هذا الإرهابي القادم نحوه. قال وهو يتمعن في عيني لعلَّه يعرف أين خبأت الأسلحة النووية التي أحملها:

- اتبعني من فضلك.

قادني عبر ممرات طويلة، والنظرة الصارمة لا تفارق عينيه، لدرجة أنَّ كلَّ الناس يتحاشون المرور بنا خوفاً من هذا المجرم الخطير))[٥٢].

من دال إطار هذا المكان الانتقالي الضيق والمغلق(الممر الطويل) يتشكّل مدلول الرؤية الإيديولوجية للمكان ثانية، وفق سلوك ورؤية الذات(الضابط) تجاهه(محمد)، المتسم بسلوك حذر ومتشكك((x)، النظرة الصارمة)، مقارنة مع سلوكه تجاه الآخرين(يُساعد، يبتسم)، لهذا ينتقل حركة(محمد) إلى تراتب مكاني أو إجرائي رسمي آخر أكثر صرامة، في تراتبية هذا المكان(المطار)، حين يصل الى((غرفة واسعة، اقشعر بدني من برودة المكان وهدوئه، فالصالة كبيرة وممتلئة بطاولات كثيرة أقرب إلى طاولات التشريح منها إلى طاولات التفتيش(...) جلست أنتظر إحضاره الزي "البرتقالي"، ليُلبسني إياه..!))[٥٣].

فهذا الوصف الداخلي لأبعاد هندسة المكان(الغرفة)، والأشياء التي فيها، وارتدائه لزي معين، تحمل مدلولات وظيفة المكان الرسمية أو الإجرائية، مثلما تحمل مدلولات الشخصية التي فيها بوصفها متهماً أيضاً، ومن دلالة التطابق، دال المكان(غرفة التحقيق) مع دال الشخصية(متهم) يتشكّل حوار الأسئلة والأجوبة، بين الضابطة النيوزيلندية و(محمد)، متمثلاً في سياق الأسئلة النمطية للمتهم الإرهابي، قائلة له:

- الآن أخبرني لماذا أتيت إلى هنا؟.

وكما يقولون في الغرب هذا هو(سؤال المليون دولار)!!.

حقيقية وجودي هنا، له سببان: الأول أنا في إجازة من عملي، والثاني أريدُ تقوية لغتي الانجليزية. هززتْ رأسها بدون اقتناع(...) نظرتْ إليّ أيقنت بعدها بعودتي إلى بلدي على أوّل متن طائرة مغادرة))[٥٤].

تتشكل الثنائية التقاطبية، لعلاقة الآخر بالذات أو بالمكان الغربي، من خلال الإشارات المكانية المتضادة(هنا، هناك)، فالإشارة المكانية(هنا) تُشير إلى رفض الذات الرسمية الغربية في اختراق الآخر الشرقي لمكانها، لمدلول الإشارة المكانية(هناك) التي تُحيل إلى خطر هذا الحضور، لهذا، يتمثّل هذا الاختراق للآخر(هنا) تهمتهُ الوحيدة. ومن هذه الثنائية المتقاطبة يتشكّل إطار المكان الغربي بالرؤية الإيديولوجية تجاه وجود الهوية الثقافية للآخر بالرفض. من دال عتبة المكان الأولى، تأسست هذه الرؤية والعلاقة بين الآخر والذات في إطار مكانه المُحمل بصور ذهنية مُسبقة عن صورة هذا الآخر.

وإذا كانت العتبة المكانية الأولى وصفت السلوك الإيديولوجي الرسمي والإجرائي تجاه العربي، فإنّ العتبة المكانية لهذه المدينة، ستصف سلوك عامة الناس من النيوزيلنديين وغيرهم، من دال الهوية الثقافية أيضاً، بوصف الهوية تشكّل أحد صور التفاعل العلائقي بين الذات والآخرين.[٥٥] وهذا ما سيؤكده الحدث الثاني في مكان الإقامة(الفندق)، الذي ينزل فيه(محمد)، فبعد أنْ يُكمل إجراءات المطار ويخرج منه، يصل إلى الفندق ليلاً، إلاّ أنّهُ لا يشعر بالراحة لسوء نظافة غرفة الفندق، الذي يُديره(أدموند)

لوحده، وهو شخص غير مُبالٍ بنظافة الفندق، مما يُثير غضبه، فيُخاطبه بنبرة متشددة، تُشعر(أدموند) بالخوف منه، إلاّ أنّ خوفه من(محمدٍ)، لم يكن بسبب نبرة الغضب بوصفه نزيلاً عادياً في الفندق، بل يتشكّل دال خوفه من دال مرجعه المكاني لـ(محمد) أو بسبب الصورة الذهنية المطبوعة في ذهنه عن الهوية الثقافية الإسلامية المتسمة بالإرهاب، لذلك يعلل أو يفهم(محمد) خوف (أدمون) منه، قائلاً:((يبدو أنَّ هجومي المفاجئ وكل ما يحمله (أدموند) من أفكار مغلوطة عن العرب والمسلمين، كان له أثر كبير على هذا الكهل، الذي انقلب وجهه أبيض، وزاغت عيناه، وهو يتوقع مني الأسوأ))[٥٦].

بوصف دال الإقامة(الفندق) يجسّد مكاناً عاماً وجزءً من المكان العام للمدنية، فـ(أدموند) يُمثّل جزءً من عامة الناس في هذه المدينة أيضاً، أيْ أنّه يعكس منظور عامة الناس في هذه المدينة، دلالة على ترسخ صورة العربي المسلم بوصفه خطراً وعدواً محتملاً هنا. ومن هذه الرؤية تتكرر ذات الصورة النمطية الذهنية هذه، في دال مكان الهوية الثقافية(مصلى معهد) المكان المُخصص لأداء الصلاة لطلبة المسلمين في هذا المعهد. من خلال استدراج أحد الطلبة السعوديين في المعهد وصديق(محمد)، لطالب برازيلي يدرس معهم في المعهد، وكان دائم السخرية من العرب والمسلمين، يُستدرجه إلى المصلى ليخيفه فقط، إلاّ انّه يرتعب حين يتذكر الصورة الذهنية التي يروجها الأعلام الغربي عن العرب، من قتل وتفجير وجز للرؤوس[٥٧].

وإذا كان هذا السياق يؤطر دال مكان الهوية الثقافية(المصلى) بالإيديولوجية تجاه الذات(المسيحية)، فيمكن رصد مركزية الهوية وسطوتها من دال مكانها الثقافي، فرغم أنْ هذا المكان(المصلى) هو في إطار المكان العام(نيوزيلندة)، إلاّ أنّه يتمتع بسطوته الثقافية، بدليل أنَّ الطلاب المسلمين، لم ينفردوا(بتوماس) في مكان جغرافي آخر من المدينة وتعمدوا اختيارهم لهذا المكان، فمن هذه الدلالة استحضر(توماس) الصورة الذهنية المخزونة مسبقاً عن الهوية الثقافية للمسلم، ليتشكّل المكان الدلالي الغربي للهوية الثقافية في ثنائية الموقف والسلوك للذات تجاه الآخر الثقافي، أمّا الخوف منه، أو

السخرية منه. لمدلول حضور الشخصية العربية الفاعلة، بصفاتها ومن هذه الدلالة، يتشكل دال مكان المدينة موازٍ لدال مكان العتبة الرسمي، من ذات الرؤية أو الموقف الإيديولوجي. وأنْ كانت هذه الرؤية مُشخصة من الشخصية الساردة(الآخر) فيمكن أنْ تكون وجهة النظر مركبة من الرؤية الموضوعية والذاتية هنا، حين يستند السارد أو السرد على وصف المكان وأثره في الشخصية التي تخترقه دالا على إيديولوجية الرؤية.(٥٨)

تشكل المكان الغربي بوصفه إطاراً دلالياً لتمثّيل حضور أو غياب شخصية العربي (الآخر) في المشهد المكاني الغربي، وفق محورين: محور ثقافي إجتماعي، مثّل غياب شخصية العربي الخليجية، حيث كان حضور الهوية العربية الثقافية في الغرب باهتاً وغير واضح المعالم. يُقابله الحضور الفاعل والمدوي للهوية العربية الثقافية الإسلامية، وفق المحور الإيديولوجي. وفي كلا النموذجين، تجسدا من دال المكان إطار جغرافيا وهندسياً.

الخاتمة :-

ويمكن الاستنتاج بأنّ هذا المبحث تجسّد من دال المرجع المكاني للآخر، في ثلاث أمكنة (الخليجي، العربي، الغربي)، فتجسّد الأول، من محور دال المكان العربي الإيديولوجي (الكويتي، المصري) دالاً على تعدد الهوية الثقافية الإيديولوجية، وضيق الهوية الوطنية الإيديولوجية وانحسارها بدال واحدٍ.. أمّا المحور الثاني، دال المكان الغربي(الأميركي، النيوزيلندي) دالاً على الصورة النمطية والذهنية المشوهة التي يروجها الأعلام الغربي، سواء أكانت هذه الصورة تُجسد بدائية وهامشية الهوية الثقافية العربية بالتباين الثقافي الحضاري بين المكانيين أو الثقافتين من دال غياب الشخصية العربية الفاعلة أم كانت هذه الصورة تجسّد عدائية ودموية وعنف الهوية الثقافية العربية، بالتباين بالرؤية والسلوك، من دال فاعلية الشخصية الإيديولوجية. مثلما مثّل دال المكان الإيديولوجي (الكويتي، النيوزيلندي) فضاءً طارداً وضاغطاً للآخر الإيديولوجي(البدون، المسلم).

لتتشكل من هذه الدلالة، ثنائية التقاطب المكاني: مكان الذات، ومكان الآخر. من دلالات الأمكنة الجزئية في إطار المكان العام، ومن دلالات المكان العام بوصفه إطاراً جغرافياً

للحدث مكاناً دلالياً وبنيوياً، حمل محمولات اجتماعية وإيديولوجية، وفلسفية وفكرية، في تشخيص علاقة الآخر بالذات من زاوية دال الرؤية للمكان. ويمكن الإشارة إلى أنَّ الرؤية الدلالية، سواء تمثّلت من خلال الراوي أو الشخصية، فهي رؤية شكلتها دال وصف المكان. ومن هنا، يمكن القول إنّ المكان وسيلة أو قناة ينقل الراوي من خلالها وجهة نظر حيادية وموضوعية، من خلال الوصف الهندسي الخارجي للمكان، أو عبر وجهة نظر ذاتية تنقل الشخصية علاقتها بالمكان.

وقد تشكلت تلك الدلالات من خلال ثنائية التضادية، تصف علاقة الشخصية (الآخر)، لتمثل بنية التضاد، بنية بنيوية مهيمنة ومتحكمة في تشكيل دال الأمكنة. أيّ أنّ المكان لم يتشكل في النماذج أعلاه، وفق وظيفته التقليدية المحددة، بإطار لأحداث والأشخاص والإيهام الواقعي والوصف التزيني. من هنا تتضح الدلالات المتباينة لمكان الدلالي المرجعي والجغرافي، وفق علاقته بالشخصية(الآخر). فوظيفة ودلالة المكان، حاولت الإجابة عن ثلاث أسئلة ، وهي: أن الحدث جرى في إطار المكان الجغرافي للذات، ومن اختراق أو وجود الآخر فيه.ثانياً، تم تشخيص المكان من وظيفة الوصف التفسيرية والرمزية، التي لم تصف الأشياء الساكنة والثابتة لهندسة الشكل الخارجي للأمكنة، بل وصفت حركة الشخصية وردة فعلها وأفكارها ومشاعرها وحركتها من خلاله. ثالثاً:تم اختيار وتحديد الأمكنة،وفق التقاطب الثنائي والتراتب الطبقي والرؤية الشخصية للمكان، لما يمثله هذا الإجراء تحديداً،من تشخيص دلالي، للآخر كمختلف اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وأيديولوجياً مقارنة بالذات.

الهوامش:-

* الآخر هو نقيض الذات، من هذا لا يتشكل الآخر آخراً إلاّ وفق علاقته مع الذات،هذه الذات تقصي وتستبعد كل من لا ينتمي إلى نظام الفرد أو الجماعة أو المؤسسة،سواء أكان هذا النظام نسقاً ثقافياً أ واجتماعياً أو فكرياً أو دينياً أو مذهبياً وغيره، والآخر مفهوم من المفاهيم الآليات الإيديولوجية،ولعل ما يميز الآخر مختلفا ليس فقط من هو غريب أو غيري بالنسبة للذات،بل أيضا كل ما يهدد الوحدة والصفاء لهذا النظام،بوصفه خطراً،وتأتي أهمية تحديد الآخر من كونه عامل فاعل في تكوين أو تشخيص الهوية والذات،إذ أن الوعي بمفهوم الذات أو الهوية لا يتمثل ولا يتشكل إلاّ بالتعرف أو وجود الآخر.ومن جهة أخرى فالآخر عند(فوكو) هو الهامشي واللا مفكر فيه الذي يستبعده المركز.والآخر يعني شخصا أو مجموعة مختلفة من الناس ذات هوية موحدة بالمقارنة مع مجموعة الذات،وهنا سيشكل مفهوم الهوية تقسيم وتصنيف وانشطار،بوصف الهوية قد تكون هوية قومية أو ثقافية أو دينية أو مذهبي،ومن هذا تشكل مفهوم مصطلح الآخر بالتعددية الذي يتكون من منظور الذات له.ينظر:دليل الناقد الأدبي،د.ميجان الرويلي.د.سعد البازعي،المركز الثقافي العربي،ط٣، ٢٠٠٢: ٢١-٢٤

*من أهم مصطلحاته الأخرى، الحيز، الفراغ، البقعة، وغيرها، بالإضافة إلى المكان، وترتبط هذه المصطلحات من علاقة المكان بالوصف(الوظيفة التزينية) أو بتوقف انقطاع السرد الزمني. أمّا مصطلح الفضاء الذي ارتبط به في الدراسات النقدية الأخيرة، فيرتبط بالمكان من دال سيرورة السرد وجريان الأحداث ولا يتعلق هذا المصطلح بوصف المكان حسب الوصف التزيني، بل يرتبط بالتمثيل الذهني المتخيل في ذهن المتلقي،لأن أساسه اللغة، ومن وظيفة الوصف السردية أو التفسيرية: ينظر المصطلح السردي في النقد الأدبي الحديث،ص٣٩ ٣- ٣٤٤.

١- دلالات الفضاء الروائي في ظل معالم السيمائية، رواية(الآن ..هنا)، أطروحة دكتوراه، عبد الله توام، جامعة أحمد بن بله-وهران، ٢٠١٥-٢٠١٦: ٤٦، نقلا عن: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، إبراهيم عباس، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر،٢٠٠٢، ص ٣٤.

٢- بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان، مقاربة بنيوية، زهيرة بنيني، أطروحة دكتوراه، جامعة العقيد الحاج لخضر- باتنه-،٢٠٠٨، ص١٩٠-١٩١.

٣- ينظر: بنية الشكل الروائي،حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي – المغرب،ط٢ ،٢٠٠٩. ص ٢٨.

٤- بنية النص السردي،، حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، ط٣، ط،٢٠٠٠. ص٦٣ .

٥- المصدر نفسه، ص ٦٢.

٦- المصدر نفسه، ص ٦٧.

٧- المصدر نفسه، ص ٦٤.

٨- بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان، مقاربة بنيوية،ص ١٨٨.

* كما نجد ذلك في أدوات وإجراءات سيزا قاسم في دراستها للمكان في كتابها(بناء الرواية دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ): ٧٥-٧٦، وكثير من الباحثين من نهج نهجها.

٩- ينظر: المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث ،أحمد رحيم كريم الخفاجي، ماجستير-جامعة بابل، ٢٠٠٣.ص ٣٥٤- ٣٦٠.

١٠- الفضاء الروائي، مجموعة مؤلفين، ت: عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق،٢٠٠٢ ت: عبد الرحيم حزل: ٥٧.

١١- شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الراوية العربية، حسين نجمي،المركز الثقافي العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٢ .

١٢- بنية النص السردي،ص ٥٤.

* للمزيد من التنظير حول مفهوم الفضاء: ينظر: شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الراوية العربية، ص٢٩، وما بعدها.

١٣- الفضاء المكاني في رواية حقول الرماد (المواصفات- المكونات- الوظائف)، د.محمد على البنداق، كلية الآداب- جامعة الزاوية، مجلة الجامعة، عدد١٥، مجلد٣، ٢٠١٣: ٢٥.

١٤- ينظر: بنية الشكل الروائي،ص ٢٨. و بنية النص السردي، حميد الحميداني،ص٥٣،٦٣. و: شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الراوية العربية،ص٤١.

١٥- ينظر: بنية اللغة الحوارية، في روايات محمد مفلاح ، جامعة وهران- الجزائر، أطروحة دكتوراه، زواي أحمد، ٢٠١٤-٢٠١٥. ص١٧٧.

١٦- ينظر: بنية الشكل الروائي، ص ٢٩.

١٧- بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة،عبد الجليل مرتاض نموذجاً،أطروحة دكتوراه،إسماعيل زغوده،جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان-الجزائر،٢٠١٣-٢٠١٤،ص ١٦٠.

١٨-ينظر: بنية الشكل الروائي،ص ٢٦.

١٩- المصدر السابق، ص ٣٤.

٢٠- بنية الشكل الروائي، ص ٤٠.

٢١- ينظر: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق،آمنة يوسف، دار الحوار-سوريا،ط١،١٩٩٧،ص ١٤٤.

٢٢- ينظر: المصدر السابق، ص٣٠ .

٢٣- بنية الشكل الروائي، ص ٣٠.

٢٤- بنية النص السردي،ص ٥٤.

٢٥- الفضاء الروائي، المقال: كولدنستين(الفضاء الروائي)، جنيت جيرار ومجموعة مؤلفين، ترجمة: عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق،ط١،٢٠٠٢، ص٢١.

٢٦- سيمائية العنوان، بسام قطوس، وزارة الثقافة –عُمان، ط١،٢٠٠٢،ص٣١.

٢٧- شقة الحرية، غازي القصيبي، دار رياض الريس للكتب والنشر،ط٥ ،١٩٩٩،ص.١٠٣

٢٨- ينظر: الفضاء الروائي، مجموعة مؤلفين، ص ٨٣، ١٣٨.

٢٩- شقة الحرية، ص ١٠٣-١٠٤.

* الحدّ: هو اللقب العشائري لأحدهم (يعقوب الحديّ)، وأسم العروبة يُحيل دلالته إلى القومية العربية، ومن منظور إطار الإيديولوجيات الدينية والقبيلة والسياسية، التي تؤطر فضاء الهوية للوطن العربي، التي يحاول مشروعهم -الطلاب- تأسيسه في كسر هذه التابوهات التي تمثّل جزءاً من أسباب تجزأ وانقسام الأمة العربية، يمكن أن نستنتج أن أسم(الرفاع) تُحيل دلالته إلى مرجع ديني مشتق من المذهب الديني الرفاعي.

٣٠- شقة الحرية، ص ١٠٤.

٣١- المصدر نفسه، ص ١٠٤.

٣٢- بنية الشكل الروائي،ص ٣٢.

٣٣- ينظر: بحث: الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم أنموذجا"، نضال محمد فتحي الشمالي ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٣، العدد١. ٢٠٠٦، ص ١.

٣٤- شقة الحرية،ص ١٤٠-١٤١.

٣٥- المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٧.

٣٦- حول الهوية الثقافية، ستيورات هول، ترجمة: بول طبر، بول طبر، مجلة إضافات، العدد الثاني، ربيع ٢٠٠٨ ،ص١٥٤.

٣٧- الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم أنموذجا" ،ص٢ .

٣٨- ينظر: السرد، جون ميشيل ادم، ت: احمد الودرني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، ٢٠١٥،ص ٨٦.

٣٩- ينظر: الزمن في الرواية العربية مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٩٩٢،ص ٢٤٩.

٤٠- في حضرة العنقاء والخل الوفي، إسماعيل فهد إسماعيل، الدار العربية للعلوم،ط١ ٢٠١٣، ص ١٢-١٣.

٤١- المصدر السابق، ص ١٤-١٥.

٤٢- في حضرة العنقاء والخل الوفي، ص ٢٢-٢٣ .

٤٣- المصدر نفسه، ص ٢٥.

٤٤- المصدر السابق،ص ٢٢-٢٤ .

٤٥- ينظر: البنية السردية في روايات خيري (الزمن والمكان) صفاء المحمود ، رسالة ماجستير- جامعة البعث-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-اللغة العربية ، ٢٠٠٩ ،ص٥٧.

٤٦- حول الهوية الثقافية، ستيورات هول، ت: بول طبر، ص ١٥٣- ١٥٤.

* تجسدت الشخصية العربية في المكان الغربي بصفتين: صفة الإرهابي، في رواية(زبد الطين) للكاتب القطري جمال الفايز، ورواية(مسك) للكاتب الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل. وصفة التحرر السلوكي الخليجي، في رواية (الحياة كما هي) للكاتبة العمانية ظبية خميس، ورواية(ستر) للكاتبة السعودية رجاء عالم، ورواية (للحزن خمسة أصابع) للكاتب الإماراتي محمد

حسن أحمد، ورواية (العريضة) للكاتبة القطرية نورة آل سعد، على سبيل المثال وليس الحصر.

٤٧- الحياة كما هي، ظبية خميس، دارالآداب- بيروت، ط١، ٢٠١١، ص١٧.

٤٨- المصدر السابق، ص ١٨-١٩.

٤٩- الحياة كما هي، ص١٩

٥٠- المصدر السابق، ص٣١-٣٢

٥١- أوراق طالب سعودي في الخارج، محمد بن العزيز الداود، مكتبة العبيكان- الرياض،ط٤ ،٢٠٠٩،ص ١٣.

٥٢- أوراق طالب سعودي في الخارج ، ص١٤.

٥٣- المصدر نفسه،ص١٥.

٥٤- أوراق طالب سعودي في الخارج ، ص١٧.

٥٥- ينظر: أوسفالد شفايمر، الثّقافة المختلطة والهوية الثّقافية - بعض فرضيات جدل الغريب والخاص في وحدة الثّقافة، ترجمة :عبد الحكيم شياط، موقع الحوار المتمدن ١٥-٥-٢٠١٢ .

٥٦- أوراق طالب سعودي في الخارج ، ص٤٧.

٥٧- ينظر: المصدر السابق، ص١٤٠-١٤١.

٥٨- ينظر: البنية السردية في روايات خيري الذهبي،صِ ٣٠.

المصادر والمراجع

المتون الروائية:

- أوراق طالب سعودي في الخارج، محمد بن العزيز الداود، مكتبة العبيكان- الرياض، ط٤، ٢٠٠٩.
- الحياة كما هي، ظبية خميس، دارالآداب- بيروت، ط١، ٢٠١١.
- شقة الحرية،غازي القصبي، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط٥، ١٩٩٩.
- في حضرة العنقاء والخل الوفي، إسماعيل فهد إسماعيل، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط١، ٢٠١٣.

- بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي – المغرب،ط٢ ،٢٠٠٩.
- بنية النص السردي، حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، ط٣، ط،٢٠٠٠.
- تقنيات السرد في النظرية والتطبيق،آمنة يوسف، ط١، دار الحوار-سوريا،١٩٩٧.
- الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٩٢.
- السرد، جون ميشيل ادم، ت: احمد الودرني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، ٢٠١٥.
- سيمياء العنوان، بسام قطوس، وزراة الثقافة – عُمان، ط١، ٢٠٠٢.
- شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الراوية العربية، حسين نجمي،المركز الثقافي العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- الفضاء الروائي، مجموعة مؤلفين، ت: عبد الرحيم حزل،ط١، أفريقيا الشرق،٢٠٠٢ .
- الرسائل و الاطاريح الجامعية :
- بنية اللغة الحوارية في روايات محمد مفلاح، جامعة وهران- الجزائر، أطروحة دكتوراه، زواي أحمد، ٢٠١٤-٢٠١٥.
- دلالات الفضاء الروائي في ظل معالم السيمائية، رواية(الآن ..هنا)، أطروحة دكتوراه، عبد الله توام، جامعة أحمد بن بله-وهران، ٢٠١٥-٢٠١٦.
- بنية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة،عبد الجليل مرتاض نموذجاً،أطروحة دكتوراه،إسماعيل زغوده،جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان-الجزائر،٢٠١٣-٢٠١٤.
- البنية السردية في روايات خيري(الزمن والمكان)، صفاء المحمود ، رسالة ماجستير- جامعة البعث-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-اللغة العربية ، ٢٠٠٩/٢٠١٠.
- المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث ،أحمد رحيم كريم الخفاجي، ماجستير-جامعة بابل، ٢٠٠٣.

المقالات والبحوث

- حول الهوية الثقافية، ستيورات هول، ترجمة: بول طبر، بول طبر، مجلة إضافات، العدد الثاني، ربيع ٢٠٠٨.
- الفضاء المكاني في رواية حقول الرماد (المواصفات- المكونات- الوظائف)، د.محمد على البنداق، كلية الآداب- جامعة الزاوية، مجلة الجامعة، العدد١٥، مجلد٣، ٢٠١٣.
- الوصف في الخطاب الروائي وأبعاده التقنية "زياد قاسم أنموذجا الروائي ، نضال محمد فتحي الشمالي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٣، العدد١. ٢٠٠٦.

• المواقع الإلكترونية

- أوسفالد شفايمر، الثّقافة المختلطة والهوية الثّقافية - بعض فرضيات جدل الغريب والخاص في وحدة الثّقافة، ترجمة :عبد الحكيم شياط، موقع الحوار المتمدن ١٥-٥-٢٠١٢.